

**الثورة الجزائرية والبلدان الاشتراكية :
مثال الاتحاد السوفييتي والصين الشعبية**

د. صالح بلحاج

جامعة الجزائر

ملخص

جنباً إلى جنب مع تطوير العمل المسلح في الداخل، بذلت جبهة التحرير الوطني جهوداً حثيثة على الصعيد الدولي لتوفير الدعم المادي والسياسي للثورة الجزائرية، حيثما وُجد. وكان بحكم طبيعة حركتها التحررية المناوئة للاستعمار والإمبريالية من الطبيعي أن تلقى تجاوباً لدى البلدان الاشتراكية أكثر من البلدان الرأسمالية. وهو ما حدث. غير أن المساعدة التي تلقتها من بلدان هذا المعسكر ومشتملاتها، وحرارة العلاقات التي قامت بينها وبين أنظمتها، لم تكن واحدة في جميع الحالات. تقدم هذه المقالة لمحة عن مساعدة بلدين بارزين في هذا المعسكر، الاتحاد السوفيتي والصين الشعبية، للثورة الجزائرية وتحليلاً للعوامل التي أدت إلى فرق ملحوظ في علاقات كل منهما مع الجبهة.

أولاً : الثورة الجزائرية والاتحاد السوفيتي

كانت علاقات جبهة التحرير الوطني مع الاتحاد السوفياتي أثناء الثورة التحريرية غامضة ومعقدة مقارنة بعلاقاتها مع الصين الشعبية ويوغوسلافيا مثلاً. يعود ذلك إلى مجموعة أسباب سنبينها في هذا القسم الأول من المقالة الذي سنتناول فيه تطور العلاقات بين

الثورة الجزائرية والاتحاد السوفياتي لننتقل بعد ذلك إلى مضمون هذه العلاقات.

1 - تطور العلاقات بين الجبهة والاتحاد السوفيتي

لمتابعة تطور العلاقات بين جبهة التحرير الوطني والاتحاد السوفياتي ينبغي التمييز بين ثلاث مراحل هي كما يلي :

المرحلة الأولى، فترة الانتظار خلال هذه الفترة التي امتدت من انطلاق الثورة إلى مؤتمر الصومام في أوت 1956 لم تكن ثمة أي علاقة بين الجانبين. كان السوفيات غير مطلعين جيدا على الوضع في الجزائر، وكان مصدر معلوماتهم عنها الحزبين الشيوعيين، الجزائري والفرنسي. إلى غاية جويلية 1956، كان قادة الكريملين يعتبرون الوضع في الجزائر شأنا فرنسيا داخليا، حيث قال في هذا الصدد رئيس مجلس الوزراء السوفياتي وقتذاك، السيد نيوكولا بولغنين : "إن الجزائر مشكلة معقدة للغاية وعلى فرنسا أن تقوم بمعالجتها لوحدها"¹. في شهر جويلية 1956، وبالرغم من فشل محاولة الحزب الشيوعي الجزائري الخاصة بتنظيم العمل المسلح ضد الاستعمار الفرنسي خارج صفوف جبهة التحرير الوطني، وتصدي هذه الأخيرة له بحزم، فإن الزعيم السوفيتي كروتشوف قام لأول مرة بانتقاد سياسية غي مولي، رئيس الحكومة الفرنسية، في الجزائر². وبدأ في الوقت نفسه اهتمام السوفيات

بالقضية الجزائرية. ثم كان مؤتمر الصومام في نهاية أوت 1956 الذي تميز بتشدده تجاه الشيوعيين. على إثر ذلك، اتضحت الصورة للسوفيت وتبينوا معطيات الوضع في الجزائر : هناك ثورة تحريرية معادية للشيوعية، ولا يمكن للحزب الشيوعي أن يقوم بدور قيادي فيها. عندئذ تحدد الموقف السوفيتي على النحو التالي : محاولة إقامة علاقات مع الجبهة، والامتناع عن قطع علاقاتهم مع فرنسا، ودعم حل للقضية الجزائرية يتم في صورة تسوية مرضية لفرنسا.

المرحلة الثانية، فترة المساعدة المادية والحذر السياسي امتدت هذه المرحلة من خريف 1956 إلى خريف 1958. في أكتوبر 1956 أدان الاتحاد السوفيتي بشدة اختطاف طائرة القادة الخمسة³، وفي نهاية أكتوبر وقعت أزمة السويس والعدوان الثلاثي على مصر، والتي كانت مناسبة للاتحاد السوفيتي من أجل الإفصاح عن عزمه على دعم الجزائريين والمصريين مهدداً الفرنسيين والبريطانيين باستخدام الأسلحة النووية. وتجلّى ذلك الموقف السوفيتي في مضاعفة دعمه المادي للجبهة، لكن دائماً بقدر واضح من الحذر والتردد أحياناً.

في ما يخص الجبهة، كانت دائماً تعبر عن عدائها للشيوعية، لكنها قبلت مساعدة الاتحاد السوفيتي دون محاولة الاتصال الرسمي به، مستخدمة مساعدته كوسيلة للمساومة⁴ وتحذير الأمريكيين من عواقب امتناعهم عن دعمها، والمتمثلة في التوجه

نحو المعسكر الاشتراكي. بعد أزمة السويس ارتاحت الجبهة لموقف الدولتين العظميين من فرنسا ، ودفعها ذلك إلى الاعتقاد أنه لا مجال لليأس من الحصول على دعم الأمريكيين .ثم جاءت سنة 1958 فكانت بحق منعطفًا هامًا في التاريخ الدبلوماسي للجبهة ، خاصة في علاقاتها مع البلدان الاشتراكية. وتم ذلك التحول بفعل ثلاثة عوامل رئيسية :

- أحداث ساقية سيدي يوسف وآثارها السياسية

على إثر تلك الأحداث تيقنت الجبهة أنه لا أمل يرجى من دعم الأمريكيين وتخليهم عن فرنسا. فسقط الوهم وخاب الأمل المتمثل في كسر التحالف الغربي بسبب الجزائر وتخلي الولايات المتحدة عن فرنسا ، إذ تبين أن الأمريكيين لن يتخلوا عن هذه الأخيرة التي كانت تتلقى مساعدة كبيرة ومتعددة الأشكال من حلفائها الغربيين، وكانت تستخدم بصورة متزايدة القدرات الحربية للحلف الأطلسي في الجزائر.

- سنة 1958 صادفت أيضا الفترة التي ازدادت فيها الحاجة إلى الدعم الخارجي لتموين جيش التحرير الذي بدأت قدراته تتناقص على إثر إغلاق الحدود الشرقية والغربية ابتداء من نهاية 1957 ومطلع 1958. المساعدة التي كانت تصل إلى الولايات في ذلك الوقت من البلدان العربية والاشتراكية أساسا لم تكن كافية، فكانت

الحاجة ملحة للسعي من أجل مضاعفتها وإيجاد مصادر تمويل جديدة.

. المطالبة من داخل قيادة الجبهة بالتوجه نحو البلدان الاشتراكية. من أمثلة ذلك ما ورد في تقرير العقيد أوعمران ومبروك بلحسين بتاريخ 8 جويلية 1958 الذي جاء فيه : "رغم الدعم المعنوي والسياسي الذي حصلنا عليه (من المعسكر الاشتراكي) فإننا بقينا متجاهلين حوالي 10 دول تشكل الكتلة الأهم في الوقت الحاضر. يجب علينا أن نتصل في أقرب وقت ممكن بالحكومات المعنية"⁵.

هذه العوامل أحدثت تحولا في سياسة الجبهة الخارجية، تمثل في التوجه نحو البلدان الاشتراكية، وتجسد ذلك التحول ابتداء من خريف 1958، بعد إنشاء الحكومة المؤقتة، ثم تأكد في السنوات اللاحقة. عمليا، أدى ذلك إلى إقامة الاتصال الرسمي مع الاتحاد السوفيتي من خلال زيارات عديدة قامت بها وفود الحكومة المؤقتة إلى موسكو في الفترة الممتدة من ديسمبر 1958 إلى أكتوبر 1960.

المرحلة الثالثة، مضاعفة الدعم المادي ورفض الدعم السياسي في الفترة اللاحقة التي صادفت السنوات الثلاث الأخيرة من حرب التحرير استقرت العلاقات بين الجبهة والاتحاد السوفيتي واستمرت في إطار الخلفيات والأهداف التي قامت عليها منذ البداية، مما سنراه في الفقرات التالية.

2. مضمون العلاقات بين الاتحاد السوفياتي والجبهة

في الجانب السياسي للعلاقة، حاول الاتحاد السوفياتي منذ البداية التوفيق بين نقيضين والاستجابة لانشغالين كان الجمع بينهما مستحيلا، وهما عدم الإساءة إلى فرنسا، ودعم الثورة الجزائرية في آن واحد. بالنسبة إلى الانشغال الأول، حرص الاتحاد السوفياتي على عدم إحراج فرنسا؛ لأنه كان منذ وقت مبكر، منذ الحلف السوفياتي- الفرنسي الذي وقعه ديغول في 1944، يراهن على عزل فرنسا عن حلفائها الغربيين؛ لأن هذه الأخيرة كانت في نظره الحلقة الضعيفة في سلسلة البلدان الغربية الإمبريالية، بسبب سياستها الرامية إلى الاحتفاظ باستقلالها ورفض الهيمنة الأمريكية التي كانت مسلطة على بلدان الحلف الأطلسي. انطلاقا من هذا الموقف، راح الاتحاد السوفياتي يشجع باستمرار السياسة الفرنسية، ويعمل من أجل التقارب معها، واضعا ثقته، بالنسبة إلى القضية الجزائرية، في رؤسائها لإيجاد حل "ليبرالي" للمشكلة.

كان ذلك في عهد الجمهورية الرابعة، ثم تعزز هذا التوجه بعد عودة ديغول إلى السلطة في 1958. بخصوص التنافس مع الولايات المتحدة، كان الاتحاد السوفياتي يخشى أن تقع الجزائر المستقلة، بحكم عدااء الجبهة للشيوعية، تحت نفوذ الأمريكان. ولذلك فضل حلا فرنسيا مستقلا عن المظلة الأمريكية. فهو إذا، وإذا كان لا بد من نفوذ أجنبي، لفرنسا أو أمريكا في إفريقيا الشمالية، كان يفضل الأولى على الثانية. في الوقت نفسه، كان الاتحاد السوفياتي ملتزما بتفادي التوتر وتصعيد الحرب الباردة انسجاما مع مبدأ التعايش السلمي في العلاقات الدولية. من هذه الناحية، لم يكن الوقوف السياسي الصريح إلى جانب الثورة الجزائرية ليقدم ذلك التوجه.

أما الانشغال الثاني، أي ضرورة دعم الثورة الجزائرية، فكان لا بد من ذلك بالنسبة إلى الاتحاد السوفياتي؛ لأنه في إطار الثنائية القطبية كان يراهن على عزل البلدان الغربية وتشويه سمعتها في العالم الثالث. فدعم الثورة الجزائرية كان إذاً منسجما مع سياسته الرامية إلى عزل الغرب وضرب مصداقيته في العالم الثالث وإضفاء المصداقية على خطابه المناوئ للاستعمار والإمبريالية. وبهذا يتضح أن سياسة الاتحاد السوفياتي حيال الثورة الجزائرية اندرجت تماما في استراتيجيته الدولية كقوة عظمى، وكانت سياسة دولة كبرى لها أهدافها للدفاع عن موقعها كدولة عظمى. بما سبق يفسر

الموقف السوفياتي من الثورة الجزائرية وسياسته التي يمكن إيجازها في العبارة التالية : مساعدة مادية، وشيء من الدعم السياسي الخجول، ورفض واضح للدعم السياسي الصريح.

المساعدة السوفيتية للجبهة

من الضروري إذاً أن نميز في ما يخص الاتحاد السوفياتي بين الدعم المادي والدعم السياسي. منذ وقت مبكر كان الدعم المادي متوفراً، متعدد الأشكال، وحجم المساعدة كبيراً. كان ذلك في شكل أسلحة ومواد غذائية وطبية للاجئين الجزائريين، واستقبال الجرحى للعلاج، ومنح للطلبة الجزائريين. حسب المخابرات الفرنسية، في سنة 1960، بلغت المساعدة السوفيتية للجبهة 5 ملايين فرنك قديم. إذا صح ذلك، فمعناه أن المساعدة السوفيتية وحدها مثلت في ذلك الوقت خمس ميزانية الحكومة المؤقتة.

وقدم الاتحاد السوفياتي للجزائر شيئاً من الدعم السياسي أيضاً، لكن بواسطة تظاهرات تضامنية مع الشعب الجزائري، كانت تنظمها خاصة النقابات العمالية والاتحادات الطلابية. ودعم كذلك في الأمم المتحدة بواسطة التصويت لصالح اللوائح الخاصة بالجزائر، والتي كانت تقدمها المجموعة الأفرو آسيوية بمناسبة دورات الجمعية العامة للأمم المتحدة في خريف كل سنة. لا بد أن نسجل بهذا الخصوص أن الاتحاد السوفياتي صوت باستمرار

لصالح الجبهة، وذلك منذ دورة 1955 التي أدرجت فيها لأول مرة القضية الجزائرية في جدول أعمال الجمعية العامة للأمم المتحدة. إلا أن تلك المساعدة على أهميتها بقيت محصورة في حدود معينة، وظلت حذرة، حذر تجلى في أن الاتحاد السوفياتي، وهو يضاعف مساعدته، استخدم لإرسال شحنات الأسلحة للجبهة بواخر غير سوفيتية، واستبعد من تلك الشحنات الأسلحة الثقيلة، طالبا من الجزائريين أن يلتزموا الصمت عن تلقيهم أسلحة من موسكو، وامتنع، وهذا هو الأهم، عن الوقوف الصريح إلى جانب الجبهة في ما يخص الحل السياسي للقضية عن طريق الاستقلال.

رفض الدعم السياسي

الدعم السياسي الصريح للثورة الجزائرية كان معناه بالنسبة إلى الاتحاد السوفياتي الاعتراف بالحكومة المؤقتة، وقبول بعثة دائمة لها في موسكو، وتأييد أطروحات الجبهة المؤكدة على حل الاستقلال، ومعارضة المبادرات الديغولية المناقضة لهذا الحل. وكل ذلك امتنع الاتحاد السوفيتي عن القيام به، فهو قد رفض الاعتراف بالحكومة المؤقتة رغم تجديد الطلب من مبعوثي الجبهة إلى موسكو بمناسبة كل زيارة، ولم يمنحها الاعتراف الفعلي⁶ إلا في أكتوبر 1961، واعداً في الوقت نفسه بقبول بعثة لها في موسكو لكن ذلك لم يتحقق، فظلت الجبهة ممثلة في الاتحاد السوفياتي عن طريق الاتحاد العام للعمال الجزائريين واتحاد الطلبة

الجزائريين، وحتى بعد الاعتراف الفعلي أوضح كر وتشوف أنه إنما قام بذلك لأن ديغول اعترف بالحكومة المؤقتة اعترافا فعليا ما دام قد قبل التفاوض معها. أما الاعتراف الكامل، أو الاعتراف القانوني⁷ كما يسمى في القانون الدولي، فلم يتم إلا يوم التوقيع على اتفاقيات أيفيان في 18 مارس 1962. رفض إذاً للدعم السياسي، مرده الاستراتيجية السوفيتية كما رأينا من ناحية، وعداء الجبهة للشيوعية من ناحية أخرى. يقود هذا إلى النظر في العلاقة بين الجانبين من ناحية الجبهة.

موقف الجبهة من الاتحاد السوفياتي

الجبهة من جانبها كانت شديدة الحذر في تعاملها مع الاتحاد السوفياتي. فهي من منطلق المصلحة قبلت مساعدته وسعت من أجل مضاعفتها، لكنها لم تتردد في انتقاد موقفه، وظلت حذرة باستمرار، للأسباب الآتية :

. لأنها كانت ترى أن الاتحاد السوفياتي لم يكن وفيا للثورة الجزائرية وكان يعمل على جذب ديغول نحوه على حسابها، وكانت متخوفة من تأييد السوفيات لصيغ الحل التي فكر فيها ديغول غير الاستقلال. في هذا الصدد كان لتخوفها ما يبرره. في الواقع، كان الاتحاد السوفياتي قد سارع إلى تأييد خطاب ديغول حول تقرير المصير في سبتمبر 1959، واعترف كر وتشوف في تلك

المناسبة بوجود ما سماه "روابط تاريخية بين فرنسا والجزائر"، وكان معنى ذلك أن عمق تلك الروابط كان في نظره أرضية ومبررا لبلورة حل في صورة أخرى غير الاستقلال التام.

. السبب الآخر في تقديرنا هو أن الجبهة كانت تسيورها في ذلك الوقت قيادة لم تكن في الحقيقة محايدة تماما بين الشرق والغرب، بل كانت إلى الغرب أقرب منها إلى الشرق. فقد رأينا أن نظرها نحو الشرق لم يتم إلا بعد أن تيقنت من عدم الحصول على مساعدة أمريكا. وحتى في الفترة اللاحقة ظلت قيادة الجبهة متمسكة بأمل الحصول على مساعدة الغرب، مؤكدةً باستمرار أن اللجوء إلى الشرق يستبعد تماما أي اختيار إيديولوجي، والخضوع لأي رقابة من جانبه. وظلت متخوفة باستمرار من إحراج الولايات المتحدة، ومن أجل ذلك كانت تطمئننها بالتأكيد على عدائها للشيوعية. في هذا المعنى، كانت صحيفة /المجاهد/ تذكر من حين لآخر بمثال مصر التي كانت تتلقى مساعدة من الاتحاد السوفياتي وهي التي منعت الحزب الشيوعي المصري. يمكن الرد على هذا طبعاً بالقول إن الجبهة إنما قامت بذلك للتخلص من تهمة الشيوعية والتطرف التي نسبتها إليها الدعاية الفرنسية، وأنها كانت حريصة على تأكيد عدم تبعيتها للشرق. هذا صحيح، لأن الجبهة في الواقع، وبالمقارنة مع الجارين التونسي والمغربي، ومع كثير من حركات التحرر في العالم، قد احتفظت فعلاً بحرية القرار السياسي، ولم تخضع لأي

جهة. لكن عندما ننظر جيدا في موقعها من الغرب والشرق، نجد أن التيار القيادي فيها آنذاك كان قريبا من الغرب، على مستوى الاختيارات والقناعات.

يؤيد هذا التحليل أن الجبهة تأخرت في التوجه نحو الشرق، وبعد أن فعلت لم تيسر من إمكانية الحصول على دعم الولايات المتحدة، وتفاادت دائما إحراج هذه الأخيرة وهي التي رفضت مساعدتها في حين أنها انتقدت الاتحاد السوفياتي الذي كان يساعدها، وحاولت طمأنة أمريكا أنها ليست شيوعية لكنها لم تطمئن الاتحاد السوفياتي بأنها ليست رأسمالية. لكن ينبغي ألا ننسى بأن هذا الموقف لم يكن موقف القيادات الجبهوية بكاملها، وإنما كان كما أشرنا آنفا موقف التيار القيادي الرسمي الذي ظهر إلى جانبه في الفترة الأخيرة من الحرب تيار آخر، شعبي ومناهض للغرب مناهضة علنية صريحة.

خلاصة القول إذاً بصدد الاتحاد السوفيتي والجبهة أن العلاقات بين الجانبين اندرجت بالنسبة إلى الأول في سياق استراتيجيته الدولية كقوة عظمى، وكانت بالنسبة إلى الثانية قائمة على البراغماتية والمصلحة المتمثلة في ضرورة توفير الدعم للثورة أينما وجد، لكنها لم تكن خالية تماما من الاعتبارات الإيديولوجية.

ثانيا : الثورة الجزائرية والصين الشعبية

تعود بداية الاتصال بين الصين الشعبية وجبهة التحرير الوطني إلى مؤتمر باندونغ في أبريل 1955، ولكن العلاقات الرسمية بينهما انطلقت في خريف 1958، بعد إنشاء الحكومة المؤقتة مباشرة. عقب الاعتراف الصيني بالحكومة المؤقتة يوم 22 سبتمبر 1958 خص شون لاي، رئيس الوزراء الصيني حينئذ، صحيفة *المجاهد* بحديث قال فيه : "أقدم بكل صدق تهاني الخالصة للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية التي أعلن قيامها منذ قليل. إن الشعب الصيني لمسرور بإنشاء هذه الحكومة، شأنه في ذلك شأن الشعوب العربية وشعوب العالم المحبة للسلام"⁸. في الفترة اللاحقة، تطورت العلاقات بين الصين والجبهة بشكل مطرد إلى غاية نهاية حرب التحرير.

3 - طبيعة العلاقات بين الجبهة والصين الشعبية

كانت العلاقات مع الصين الشعبية أكثر وضوحا وأقل تعقيدا مما كان عليه الأمر بالنسبة إلى الاتحاد السوفيتي. وكانت هذه العلاقات أيضا أكثر حرارة وإخلاصا من الجانبين، بحيث يمكن وصفها بعلاقة الصداقة الحميمة. مرد ذلك هو موقف الصين الشعبية من الثورة الجزائرية، موقف أملاه هنا أيضا موقعها في الساحة الدولية. فالصين لم تكن عضوا في الأمم المتحدة⁹. كانت معزولة في الساحة الدولية، مناوئة للإمبريالية، إذ لم يكن لها

ضمن القوى الإمبريالية حليف تجامله. كانت بكين تتحدى القوتين العظميين، الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي معا¹⁰، وتراهن على زيادة التوتر والتصعيد خاصة مع الولايات المتحدة الأمريكية. في ذلك المنظور، كانت الثورة الجزائرية بالنسبة إليها عنصرا وأداة لمكافحة الاستعمار والإمبريالية، فأخذت تساعد وتدعمها من دون شرط ولا تردد، وقبلت الجبهة من جانبها مساعدة الصين، مساعدة كانت شاملة، مادية وسياسية، غير مصحوبة بأي شرط، ولا بأي إشارة إلى المسائل الإيديولوجية والصراع العقائدي الذي قسم العالم آنذاك إلى معسكرين، رأسمالي واشتراكي من ناحية، وقسم المعسكر الاشتراكي إلى تيارات متباينة من ناحية أخرى، صراع كان زعيمها ماو تسي تونغ طرفا فاعلا فيه وواحدا من أهم أقطابه ومنظره ورموزه.

زيارات متكررة إلى الصين

نشأت العلاقات بين الجانبين وتوطدت بفضل زيارات متكررة أدتها وفود الجبهة إلى الصين الشعبية، على أعلى المستويات. لم يقل عدد تلك الزيارات¹¹ عن ست في الفترة الممتدة من ديسمبر 1958 إلى ماي 1961 :

- في ديسمبر 1958، كانت أول زيارة رسمية إلى بكين وهانوي، وموسكو بالمناسبة. تمت بوفد مصغر قاده بن خدة ومعه

سعد حلب ومحمود الشريف.

- في مارس وماي 1959، ذهبت إلى الصين بعثة عسكرية ضمت مجموعة من ضباط جيش التحرير هم الكولونيل صادق، عمر أوصديق، الرائد سليمان، الرائد عز الدين، محمد علاهم، وإبراهيم شفعة. ترأس الوفد عمر أوصديق، كاتب الدولة في الحكومة المؤقتة الأولى (سبتمبر 1958 - ديسمبر 1959).

- في سبتمبر وأكتوبر 1959، بمناسبة العيد العاشر للثورة الصينية، زار الصين وفد مصغر أيضا قاده بن خدة وتوفيق المدني.
- في أبريل وماي 1960، قاد وزير الخارجية كريم بلقاسم وعبد الحفيظ بوصوف وفدا حكوميا إلى بكين وموسكو، وكان من أعضائه أيضا لخضر بن طوبال وسعد دحلب وأحمد فرانسيس.
- في سبتمبر وأكتوبر 1960، زار الصين وفد حكومي برئاسة فرحات عباس، ومعه لخضر بن طوبال وأحمد بومنجل، مدير الشؤون السياسية بوزارة الإعلام في الحكومة المؤقتة، ومحمد الصديق بن يحيى، مدير ديوان فرحات عباس، وسعد دحلب ولامين خان.

- في ماي 1961، ذهب إلى بكين وفد ضم ممثلي الجبهة في المشرق هم أحمد روابحية، عباس بن شيخ الحسين، إبراهيم كبوية، ومحمد الغسييري.

في كل مرة كان المشهد نفسه : استقبال كالأستقبالات

المخصصة لرؤساء الدول، وحفاوة وتكريم. استقبال بالورود والأزهار، وجماهير الصينيين تصفق وترحب بأعضاء الوفد. واستقبال من أولى شخصيات الدولة الصينية، ومقابلات تخللتها أحاديث ونصائح دون إشارة إلى القضايا الإيديولوجية، من غير دروس ولا شروط، ودائما في النهاية مساعدة أو زيادة المساعدة، بصورة ملموسة وإجراءات فورية لتقديمها.

نموذجان من تلك الزيارات

كانت الزيارة الأولى¹² التي تمت في ديسمبر 1958 أروع تلك الزيارات. قام بها بن خدة ومحمود الشريف وسعد دحلب كما أشرنا. زيارة يمكن أن نصفها بأنها كانت زيارة "الأوليات" إن صح التعبير، إذ تخللتها أحداث ذات أهمية رمزية كبيرة، وقعت لأول مرة في التاريخ الدبلوماسي للجبهة. في مطار بيكين، كان شون لاي بنفسه حاضرا. عزف نشيد "قسما"¹³ لأول مرة في مطار أجنبى، وكان الجيش الصيني بالتالي هو أول جيش أجنبى قام بعزفه. وشهد بن خدة وزميله لأول مرة العلم الجزائري في مطار أجنبى. وعندما استقبل ماو تسي تونغ أعضاء الوفد قال لهم إنه لأول مرة في حياته يرى جزائريين. وكانت أول زيارة تعود بمساعدة كبيرة، وصفها الكاتب الفرنسي إيف كوريير في معرض حديثه عن وقائع الزيارة ونتائجها قائلا :

Le filet était lancé pour capturer un lièvre... c'est un lion que devait ramener la

¹⁴délégation du FLN

ألقيت الشبكة لاصطياد أرنب فإذا بها تعود بأسد.

يبدو أن صاحب الفكرة والدافع إلى تلك الزيارة الأولى هو بن خدة الذي أقنع زملاءه في الحكومة المؤقتة بالتوجه نحو البلدان الاشتراكية، وفي مقدمتها الصين. ضم الوفد كما قلنا بن خدة وسعد دحلب ومحمود الشريف، وأضيفي على الزيارة طابع رسمي تماما، فحظي الوفد باستقبال حار، حيث زين مطار بكين بالأعلام الجزائرية. كانت أعلى الشخصيات السياسية الصينية حاضرة على أرضية المطار. المارشال بان توشاي PAN TU Chei، القائد الأعلى للقوات الصينية في حرب كوريا، كان بانتظارهم في أسفل سلم الطائرة. ثم استقبال حار من وزير الخارجية شين يي Chin Yi، وشون لاي اللذين منحاهم ما أرادوا من أسلحة وذخيرة. من هذه الزيارة عاد محمود الشريف، وزير التسليح والتموين، إلى جيش التحرير بمدافع من طراز 75 مم الثابتة موضعا لزملائه في الحكومة المؤقتة أن "هذا قد تم بدون أي التزام من جانبنا"¹⁴. وعند مغادرتهم الصين، شكرهم "الشيخ" ماوتسي تونغ نفسه على صمود بلادهم في وجه قوات الحلف الأطلسي قائلا لهم : "نشكركم لاعترافكم بحكومتنا، ونشكركم على مساعدتكم لأنكم في الوقت الذي كنا نواجه فيه الأسطول السابع الأمريكي، كان الأسطول السادس مجمدا هناك بسبب

حربكم¹⁵. في نهاية الزيارة، لم تكن المساعدة الصينية مجرد وعود بل أشياء ملموسة : أسلحة وذخيرة، ومؤونة غذائية وألبسة ... أرز وشاي بكميات لم تعرف الجبهة ما تصنع بها في البداية، ثم اهتدت إلى فكرة مقايضتها في بلدان تملك أسلحة كثيرة لكنها بحاجة إلى مواد غذائية. بكلمة وجيزة، لا نعتقد أننا سنبالغ إذا قلنا إن وفد الجبهة عاد من زيارته الصينية بنتائج تجاوزت ما كان يتوقعه وربما ما كان يتمناه.

المثال الثاني هو الزيارة التي تمت في أبريل - ماي 1960. في تلك الفترة، كان كريم بلقاسم، وقد أصبح وزيرا للخارجية في جانفي 1960، قد لاحظ وجود إطارات من حوله وفي قيادة الأركان العامة تدعو إلى تعزيز العلاقات مع الشرق، فقرر أن ي دشّن زيارته كوزير للخارجية بجولة إلى الاتحاد السوفيتي والصين وفيتنام وكوريا الشمالية. جرت الزيارة في أبريل - ماي 1960، بوفد هام قاده كريم وعبد الحفيظ بوصوف. كانت المحطة الأولى في موسكو ثم انتقل الوفد إلى بكين وعرج في زيارتين قصيرتين على هانوي وبيونغ غيانغ بكوريا الديمقراطية، ومن جديد الصين التي عاد منها الوفد إلى تونس والقاهرة.

فتور رافقته وعود شفوية في موسكو، مساعدة ملموسة وحرارة الاستقبال في الصين، حفاوة وتكريم في فيتنام وكوريا : كانت تلك مميزات الجولة ونتائجها. في موسكو، لم يستقبل

الوفد الجزائري لا من وزير الخارجية أندري غروميكو ولا من الأمين العام للحزب، نكيثا خروتشوف، بل استقبله محي الدينوف، اختصاصي في الشؤون الإفريقية بوزارة الخارجية السوفيتية. كان مقر إقامته خارج موسكو، وتمثلت نشاطاته في زيارة الأماكن السياحية. في ما عدا ذلك، سجل محي الدينوف رغبات كريم بلقاسم ورفاقه وبلغها للسلطات العليا ثم أجابهم قائلاً : لا يمكن الاعتراف بالحكومة المؤقتة في الوقت الحاضر لعدم الإساءة إلى ديغول ولكن الكرملين قد يقوم بمراجعة موقفه في ما بعد.

في المحطة الثانية، الصين الشعبية، كانت الاستقبالات والنتائج مغايرة تماما. استقبال حار كالعادة من حوالي مليون صيني، بالأعلام والورود والتصفيق... وعزف "قسماً" ! واستقبال كذلك من كل الشخصيات البارزة في الصين : وزير الخارجية، رئيس الوزراء شون لاي، وقيادات الجيش وأيضا "الشيخ" ماو الذي استقبل كريم ورفاقه في مسقط رأسه يوم 17 ماي 1960، وقدم لهم مساعدة مالية تقدر بمليارين كما في عام 1958، وأسلحة ومواد غذائية، قائلاً لهم بأنها ستكون "حسب احتياجاتكم" ! وكل ذلك دون مقابل إيديولوجي. استقبلهم الزعيم الصيني بمنتهى البساطة دون أي بروتوكول، في جو أليف تماما، وتحدث إليهم بعد أن نزع سترته وبقي في قميصه. حدثهم عن التحرير وعن المساعدة الصينية دون

إثارة القضايا الإيديولوجية التي كانت تمزق العالم وقتئذ وكان هو أحد أقطابها. وهو ما جعل أعضاء الوفد الجزائري يؤكدون هذه المرة أيضا أنهم لم يقدموا أي مقابل إيديولوجي. وفي كل مرة كانت الصحافة الدولية تتحدث عن حفاوة الاستقبال الصيني وتقوم بنشر صور أعضاء الوفد الجزائري، كل جرائد العالم تقريبا كانت تقوم بذلك، ماعدا الفرنسية طبعا. 2 -الدعم

الصيني للثورة الجزائرية

الدعم المادي :

قدمت الصين الشعبية مساعدة مادية في شكل مبالغ من العملة الصعبة¹⁶، وكميات هامة من العتاد الحربي والأسلحة والذخيرة والمتفجرات، وألبسة عسكرية وأحذية، وتجهيزات للتخيم العسكري. وأرسلت تقنيين متطوعين لجيش الحدود. استقبلت أكثر من 200 جزائري لدورات تدريبية، وأرسلت مدربين عسكريين إلى مراكز جيش التحرير في المغرب وتونس وليبيا، متخصصين في حرب العصابات والمدفعية المضادة للطائرات. وقدمت للجبهة قروضا طويلة المدى تسدد بعد الاستقلال. في نهاية 1959، ارتفعت المساعدة الصينية إلى 30 مليون دولار. في سنة 1961 وحدها، بلغت المساعدة العسكرية الصينية من المواد الغذائية والعتاد 10 ملايين دولار، حسب المصادر التي بحوزتنا.

لاشك في أن المساعدة الصينية للثورة الجزائرية كانت أهم

المساعدات التي تلقتها الجبهة أثناء حرب التحرير بكاملها، لكنها وصلت في وقت متأخر، بعد إغلاق الحدود الشرقية والغربية بالحواجز المكهربة، فاستخدمت على وجه الخصوص لتموين جيش الحدود. ومن المتفق عليه أنها لو وصلت في الوقت المناسب وتمكنت الولايات من استخدامها كلها لاتخذت حرب التحرير في المجال العسكري مجرى غير الذي اتخذته في ما بعد.

الدعم السياسي

في ما يخص الصين الشعبية، لا مجال للفصل بين الدعم المادي والسياسي. منذ البداية وقفت الصين بجانب الجزائر. بشأن الاعتراف بالحكومة المؤقتة ذكرنا أن ذلك قد تم بعد خمسة أيام من إنشائها، تحديدا يوم 22 سبتمبر 1958. بالنسبة إلى حل القضية الجزائرية، كان الصينيون مؤيدين للحل العسكري، وكانوا ينصحون بالتصعيد العسكري حتى النصر. لم يكونوا متحمسين للتفاوض مع فرنسا إلا إذا كان ميزان القوى العسكري لصالح جيش التحرير. في أكتوبر 1959، قال المارشال Chen Yi، وزير الخارجية الصيني، لبن خدة : "أطلب منكم اليقظة... أنصار الأمريكان يريدون أن يمنعواكم من تحقيق النصر... نتمنى ألا تلحق بكم المفاوضات أي ضرر"¹⁷. كان ذلك بعد خطاب ديغول حول تقرير المصير. عندما جاءت محادثات مولان في جوان 1960، أيدها الصينيون لكن بعد فشلها.

بمناسبة زيارة كريم بلقاسم، وزير خارجية الحكومة المؤقتة، في أفريل 1960 وافقت الصين على إقامة بعثة دبلوماسية دائمة للجبهة في بيكين. عين لرئاسة البعثة مصطفى فروخي الذي توفي في حادث طائرة سوفيتية في أجواء أوكرانيا، وهي في طريقها إلى بكين. كان ذلك في أوت 1960. عندما زار عباس الصين في سبتمبر-أكتوبر 1960، جددت الصين التعبير عن رغبتها في إقامة بعثة للحكومة المؤقتة بالعاصمة بكين في أقرب الآجال. بعد ذلك عُيِّن لخلافة مصطفى فروخي عبد الرحمان كعوان الذي التحق بمنصبه وقدم أوراق اعتماده لرئيس الجمهورية الصيني، ليو شاوشي، يوم 19 ماي 1961.

3. الجبهة والتجربة الصينية

مقابل الدعم اللامشروط الذي تلقتة الجبهة من الصين، قامت صحيفة /المجاهد/ برسم صورة جميلة لهذا البلد الذي كسب رهان الخروج من التخلف. في هذا المعنى كتبت /المجاهد/: "إن الصين، ذلك البلد الذي كان شبه إقطاعي وشبه مستعمر، قد خرج من تلك الوضعية ابتداء من تحقيق الثورة الصينية. كانت الصين عازمة على الإفلات من المصير المأساوي الذي وقعت فيه البلدان المتخلفة التي ما زالت إلى الآن عاجزة عن حل تناقضاتها، فاتخذت التجنيد والتعبئة الجماهيرية وسيلة وسبيلا لكسب أعظم رهانات وقتنا

الحاضر¹⁸.

يمكن القول إن قادة الجبهة الذين قاموا بزيارة الصين قد انبهروا بالتجربة الصينية التي كانت في نظرهم محل إعجاب وتقدير، تستحق أن تكون مثالا يُتبع في مرحلة التشييد بعد الاستقلال. جاذبية التجربة الصينية شملت كل القادة الذين قاموا بزيارتها بغض النظر عن التفاوت بينهم من ناحية موقفهم وعدائهم للشيوعية. فقد أعجبوا كلهم بالتعبئة الجماهيرية والعمل الجماعي لشعب محب للكد والعمل والانضباط. سعد دحلب مثلاً أشاد بذلك في مذكراته وأورد أمثلة عديدة في هذا الصدد، كيف رأى الصينيين وهم يقومون بسقي الحقول، وكيف رآهم يكافحون العصافير الضارة بضجيج من الأدوات المنزلية... حتى عدو الشيوعية اللدود، كريم بلقاسم، بعد زيارته إلى الصين في ماي 1960، ألقى خطاباً بالمغرب في نوفمبر التالي، انطلقت منه رائحة التأثير بالنموذج الصيني. وحتى الليبرالي عباس عبر عن إعجابه، لا بالاشتراكية في ذاتها، وإنما بما رآه مجرد نمط لتحقيق التنمية. عن هذا قال رئيس الحكومة المؤقتة: "هذه التجربة مفيدة بما في ذلك للبلدان غير الماركسية. يبدو لي أن هناك أساليب ستكون مفيدة للجزائر بقدر ما كانت مفيدة للصين. لا أرى سبيلاً، لشعب وبلد متخلف مثل بلدنا، لكي يلحق بالغرب، غير اقتباس بعض المناهج من الصين والاتحاد السوفيتي وغيرهما"¹⁹. طبعاً، لم نذكر بن خدة الذي

أعجب هو الآخر بالتحويلات التي شاهدها في الصين، وكان من أبرز العاملين لتوفير الدعم الصيني للثورة الجزائرية إلى درجة جعلت الصحافة الفرنسية خاصة تصفه بالتشدد وتنسب إليه صفات الماركسي والشيوعي الموالي للصين.

كانت التجربة الصينية مهمة في نظر قادة الجبهة؛ لأن الصين قبل الثورة كانت في وضع شبيه بوضع الجزائر (الاستعمار والإقطاعية والتخلف) وتمكنت من تحقيق قدر كبير من التقدم الاقتصادي والاجتماعي جعلها في ذلك الوقت البلد الوحيد الذي رفع التحدي بنجاح في مكافحة التخلف. وكانت الصين أيضا حريصة وغيورة على استقلالها كما كتبت /مجاهد : "إن الشعب الصيني يقدم بالنسبة إلينا وبالنسبة إلى جميع الشعوب المتخلفة أحسن مثال عما يمكن أن يحققه شعب ماسك بزمام مصيره. إنه يشكل تشجيعا كبيرا لحركات التحرر ويقدم الدليل على أن الاستقلال الوطني هو الضمانة الأكيدة لتطور الشعوب ورفاهيتها"²⁰. لذلك استحضرت في نظرهم أن تكون مصدر إلهام ومشجعا لحركات التحرر. بطبيعة الحال، أوضحت صحيفة /المجاهد في الوقت نفسه أن المقصود ليس تقليد النموذج الصيني بحذافيره. وقال فرحات عباس في هذا المعنى "فكما أن الصين كانت لها مشاكلها الخاصة ستكون للجزائر أيضا مشاكلها الخاصة". وجاء في صحيفة /المجاهد أن الإعجاب بالتجربة الصينية لا يستلزم من الجبهة

اعتناق الإيديولوجيا الماركسية، وأن هذه التجربة "يجب أن تقيم من دون أفكار سابقة، ولا عواطف جياشة". ما كان محل تقدير خاص في تلك التجربة هو تأكيد الصين على الاستقلال ورفض الهيمنة والاجتهاد الجماعي لبناء البلاد.

الهوامش

1 كما ذكره حضري محمد في :

L'U.R.S.S. et le Maghreb. De la révolution d'octobre à l'indépendance de l'Algérie, 1917-1962, Paris, l'Harmattan, 1985, p. 139.

2 -Cf. G. Meynier, Histoire intérieure du F.L.N. , 1954-1962, Casbah Editions, Alger, 2003, p. 604.

3-يوم 22 أكتوبر 1956 قام الطيران الحربي الفرنسي باحتجاز طائرة مغربية متوجهة من المغرب إلى تونس وعلى متنها خمسة من قادة الجبهة (بن بلة، آيت أحمد، بوضياف، بيطاط، مصطفى لشرف)، كانوا متوجهين إلى تونس لحضور أول ندوة مغربية ثلاثية، كان من المفروض أن تعقد في شهر أكتوبر بين تونس والمغرب والجزائر ممثلة بالجبهة.

4- Cf. « Les prises de position de l'U.R.S.S. », in *EL Moudjahid*, no. 20, 15 mars 1958.

5 -يراجع التقرير الذي قدمه العقيد أوعمران في الأيام الأولى من جويلية 1958 إلى لجنة التنسيق والتنفيذ في :

M. Harbi, *Les archives de la révolution algérienne*, Jeune Afrique, Paris, 1981, pp. 183-226.

6 -توجد قائمة بأسماء البلدان والتواريخ المتعلقة بالاعترافات التي حصلت عليها الحكومة المؤقتة إلى غاية 1962 في :

M. Bedjaoui, *La Révolution algérienne et le droit*, p. 140/

7 -الاعتراف الفعلي *de facto*، معناه أن الذي منحه يعتبر أن الحكومة التي اعترف بها تملك سلطة فعلية مع افتقارها إلى السند القانوني، كأن تكون منبثقة من ثورة مثلا. والاعتراف القانوني *de jure*، يعلن صاحبه من خلاله أن الحكومة التي اعترف بها تملك سلطة فعلية ومصدرا قانونيا شرعيا (الانتخاب مثلا). لمزيد من التفاصيل حول هذا التمييز، ينظر : محمد بجاوي، المرجع نفسه، ص 115 و125.

8 -نشر الحديث في /المجاهد، العدد 30 بتاريخ 10 أكتوبر 1958.

9 -بعد انتصار الثورة وقيام الصين الشعبية في أكتوبر 1949 احتفظت تايوان بمقعد الصين في مجلس الأمن إلى غاية عودة الصين الشعبية إلى المنظمة الأممية في 1971.

- 10 - بالنسبة إلى الاتحاد السوفيتي، وصل التوتر بينه وبين الصين إلى قطع العلاقات الدبلوماسية بين البلدين في عام 1960
- 11 - Cf. S. Chikh, *L'Algérie en armes*, Economica, Paris, 1981, pp. 448-449.
- 12 - من المراجع العديدة التي روت تفاصيل هذه الزيارة المشهورة في التاريخ الدبلوماسي للجهة مذكرات سعد دحلت، أحد أعضاء الوفد الذي قام بها. عن هذا يراجع :
- S. Dahlab, *Pour l'indépendance de l'Algérie, Mission accomplie*, Ed. Dahlab, Alger, 1990, pp. 101-114.
- 13 - نشيد "قسما" كان قد ألفه الشاعر الكبير مفدي زكرياء، يطلب من عبان رمضان على قول رضا مالك. قبيل الزيارة أسند سعد دحلب مهمة تلحينه إلى مصالح إذاعة "صوت العرب" الموسيقية، وحمل التلحين معه إلى الصين حيث عزف لأول مرة في مطارها.
- 14- *Ibid*.
- 15 كما ذكره كوريير في المرجع نفسه، ص 584.
- 16- توجد تفاصيل وأرقام عن حجم المساعدة الصينية للثورة الجزائرية في مراجع عديدة منها مثلا G. Meynier في المرجع المذكور، ص 612 — 614.
- 17 - كما ذكره G. Meynier في : المرجع المذكور، 169.
- 18- المجاهد، عدد أول نوفمبر 1959.
- 19 - المجاهد، عدد أول نوفمبر 1960.
- 20- المجاهد، العدد 51، 29 سبتمبر 1959.